ازدهار صناعة النحاس وانحطاطها

في مصر في العصر الاسلامي

بقلم يوسف احمد مفتش الآثار العربية سابقاً

(١) النحاس معدن احمر ذو طعم ورائحة كريهين قابل جداً للطرق والانسحاب وهو اقل متانة من الحديد يصهر على درجة (١٢٠٠) س والحوامض الدسمة تسهل استحالتهُ الى املاح

(٢) والبرونز (النحاس الاصفر) مخلوط من النحاس والقصدير ويضاف اليهِ احياناً معادن اخرى . والقصدير باضافتهِ للنحاس يكسبهُ لوناً اقل حمرة وصلابة ورنيناً لم يكونا فيهِ من قبل ؛ ولكنهُ يجعله سهل التكسر ، ومقدار هذين المعدنين في المخلوط يختلفان باختلاف ما يراد صنعهُ بهما

(٣) استعمل النحاس بنوعيهِ (الاحمر والاصفر) بعد الفتح الاسلامي بمصر في العمائر الدينية وفي الدور والقصور والاسلحة وغيرها وذلك لشدة مقاومتهِ للتأثيرات الجوية ، ولانهُ يحسن رونقاً ويبهج منظراً من الحديد . وقد استعمل على ثلاثة انواع

(أ) كسوة وزخرفة للمصاريع (الابواب) (ب) تغشية للنوافذ (ج) للاواني والادوات المنزلية ولادوات الزينة

(٤) اما النوع الاول فاقدم ما عثر عليهِ منهُ للآن كسوة مصراعي باب جامع الصالح للائم المنشأ سنة ٥٥٠ هـ (١١٥٥ م) . وهذا الباب من الخشب وارتفاعه ٤٫٣٧ متر مغشى بقطع صغيرة من نحاس مخرمة (مثل الدانتلا) ومثبتة على صفيحة رقيقة من نحاس . وتبدو هذه القطع على هيئة نجمة ثمانيّة الزوايا . ثم كسوة مصراعي باب قبة الامام محمد بن ادريس الشافعي احد الائمة الاربعة المشهورين المنشأة سنة ٦٠٨ هـ (١٢١١ م). (انظر الرسم رقم ١)

ثم كسوة باب الخانقاه البيبرسية الجاشنكيرية المنشأة سنة ٧٠٦ هـ (١٣٠٦ م) بالجمالية ، وهي قائمة للآن بشارع الجمالية تجاه الدرب الاصفر ، واسمها جامع بيبرس. (انظر الرسم رقم ٢)

ثم باب قبة مسجد السلطان حسن المنشأة سنة ٧٥٩ هـ (١٣٥٨م) وقد كُفتت حشواتهُ الفضة والذهب . وسيأتي وصف التكفيت في موضعهِ من هذا المقال بعد

وقد عبث الزمن بهذا الباب فابادَ اغلب ما كان عليهِ من التغشية حتى جاءت لجنة حفظ الآثار العربية في سنة ١٣٢٣ هـ (١٩٠٥ م) فاصلحتهُ واعادتهُ الى ما كان عليهِ ، ونقشت

تاريخ صنعها على صفيحة من القصة بالخط النسخ المملوكي بقلم كاتب هذا المقال كما يرى في الرسم رقم (٣) . وهذا الرسم لا يجوز نقله عن المقتطف الا باذن خاص لانهُ خاص بكتاب للمؤلف نحار صنعه من هذا المسجد

على ان كسوة الابواب لم تستمرَّ على حالة واحدة فقد ادخل على صناعة تغشية الابواب بالنحاس تغييرات متنوعة ، فتارة كانت تعم التغشية الباب جميعهُ ، وتارة كانت تغشى اجزاء منهُ فقط كما يرى في الرسم رقم (٤) الخاص بباب مسجد الاشرف بالاشرفية المنشأ سنة ٨٢٧ هـ (١٤٢٤م) وهو قائم للآن بشارع الاشرفية بمصر

* * *

(ه) والنوع الثاني ينقسم الى قسمين :

(ا) تغشية النوافذ بقطعة واحدة من النحاس المسبوك مخرمة تخريماً هندسيًّا

(ب) تغشية النوافذ بعصبات رماح وعقد مشتبكة كرقعة الشطرنج من حديد مكسوة بالنحاس . او تغشية هذه النوافذ برماح وعقد مشتبكة ايضاً ولكنها من نحاس خالص

فمن الاول شبابيك قبة الصالح نجم الدين ايوب المنشأة سنة ٦٤٧ هـ (١٢٤٩ م) وهي باقية الى الآن تجاه مسجد فلاون بشارع النحاسين بمصر وتعرف بقبة الصالح وهي اقدم ما عثر عليهِ من نوعها للآن

ثم شبابيك المدرسة الطيرسية بداخل الجامع الازهر المنشأة سنة ٧٠٩ هجرية (١٣٠٩ م) وهي قائمة الى الآن على يمين الداخل للجامع المذكور من بابهِ الشهير بباب المزينين

وقد اشتهر الباب بهذا الاسم لجلوس الحلاقين بجواره لحلق رؤس طلبة الازهر قديماً وقد علقت هذه التسمية به للآن مع فقدان السبب لها والحمد لله

ثم شبابيك كثير من الاسبلة التي عملت قطعة واحدة بعد الالف من الهجرة ، ومنها وجد على سبيل السيدة رقية دودو بنت بدوية شاهين المنشأ سنة ١١٧٤ هجرية (١٧٦٠م) بشارع سوق السلاح بمصر حيث يرى في الرسم رقم (٥)

وقد لوحظ ان بعض الاسبلة شكلاً يمثل نهدين متباعدين بينهما نهدان مجتمعان كانهما داخل (مثلث) وبالاستقراء قد لوحظ إن هذا الشكل لايوجد الا في الاسبلة النسوية، ولعل المهتمين بالبحث في شؤن المرأة يرون في هذا ما يثبت ان المرأة الاسلامية في تلك العصور لم تقل اشتراكاً في الاعمال العامة عن الرجال

ولم تقتصر هذه الصناعة على تغشية نوافذ الاسبلة والمساجد بل تعدتها الى المقاصير ، ومن تلك المقصورة التي وضعت على ضريح المغفور لهُ سمو كن الجنان محمد علي باشا بداخل مسجده بالقلعة كما يرى في الرسم رقم (٦)

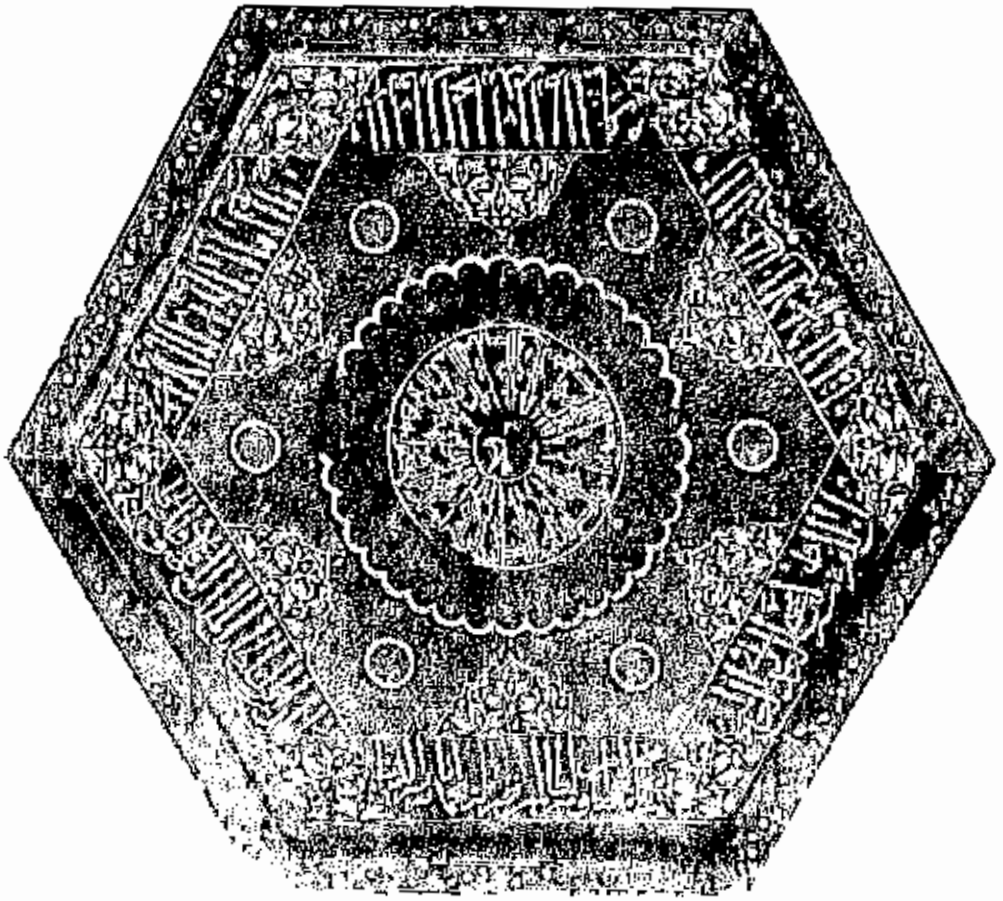

(شكل ٩) غطاء الكرسي الناصر محمد بن قلاوون

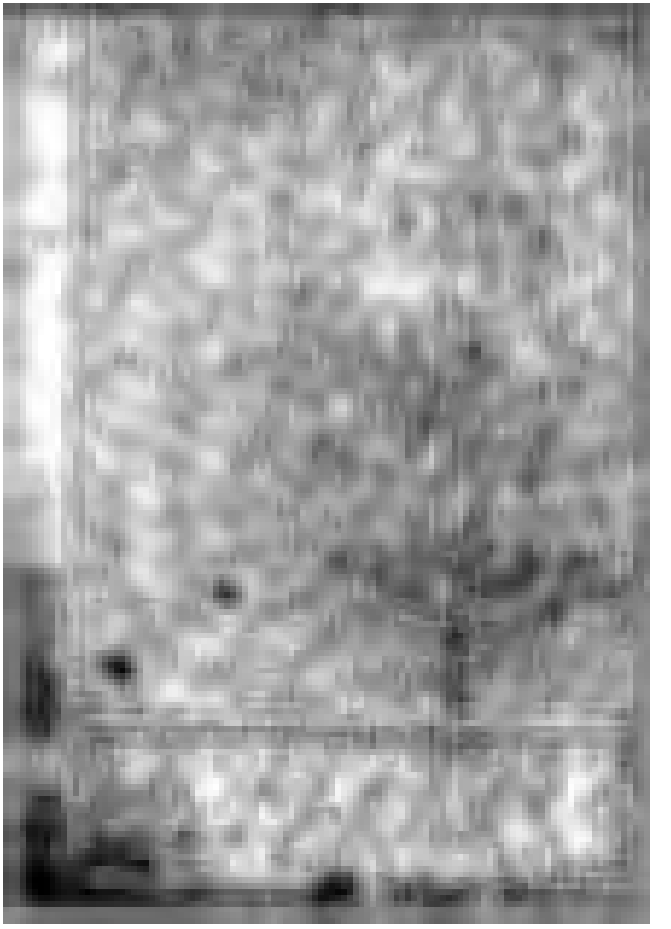

(ش ١) — جانب من باب قبة الامام الشافعي
مقتطف يناير ١٩٣٢

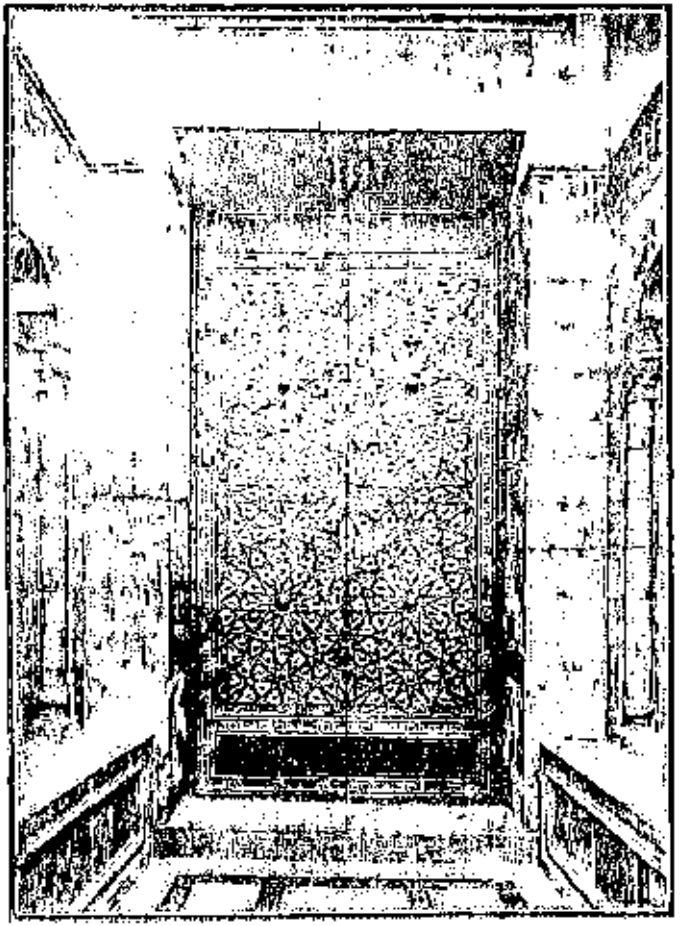

(ش ٢) — باب مسجد بيبرس الجاشنكير
امام صفحة ٨١

ومن الثاني مصبعات شبابيك جامع المارداني المنشأ سنة ٧٤٠ هجرية (١٣٣٩ م) وجامع اق سنقر المنشأ سنة ٧٤٦ هجرية (١٣٤٥ م) وهو قائم للآن بشارع باب الوزير ومشهور باسم «جامع الجداد» وجامع ابراهيم أغا مستحفظان، وعند سياح الاجانب مشهور باسم «الجامع الازرق».

وكل هذه المصبعات من حديد مكسو بالنحاس. ويلاحظ ان هذا الاستعمال كان لا يراد منه إلا الاقتصاد في النفقات؛ فهو يرى المصبع كأنه نحاس خالص وهو ليس من النحاس الخالص.

أما المصبعات المكونة من نحاس خالص فتوجد بكثرة في المساجد والاسبلة، وقد كانت صناعتها محل عناية كبيرة أنظر الرسم رقم (٧) الخاص بشبابيك قبة خانقاه بيبرس الجاشنكير السالفة الذكر. ولعل الشباك الاوسط من الشبابيك الثلاثة هو الذي قال عنه المقريزي انه الشباك الكبير الذي حماه الامير أبو الحارث البساسيري من بغداد لما غلب الخليفة القائم العباسي وأرسل بعمامته وشباكه الذي كان بدار الخلافة في بغداد وتجلى الخليفة فيه. فلما ورد هذا الشباك جعل بدار الوزارة الى ان عمر الامير بيبرس الخانقاه المذكورة فجعل هذا الشباك بقبة الخانقاه وهو بها الى يومنا هذا

قال المقريزي: وانه لشباك جليل القدر يكاد يتبين عليه ابهة الخلافة

(٦) اما القسم الثالث وهو الخاص بالاواني والادوات المنزلية وادوات الزينة فربما كان أقدم ما عثر عليه منها هو رقعة نحاسية تمثل ربع دائرة فلكية عملت سنة ٢٤٤ من الهجرة (٨٥٨ م). ثم دواة ومقلمة حجة الاسلام الغزالي في أواخر القرن الخامس الهجري (القرن الحادي عشر الميلادي). ثم شمعدان عمل سنة ٦٦٨ هجرية (١٢٦٩ م) بالموصل وآخر عمل سنة ٦٩٦ هـ (١٢٩٦ م) باسم الملك لاجين المنصوري خصيصاً لجامع ابن طولون فكرسي الملك الناصر محمد بن قلاوون انشيء سنة ٧٢٨ هجرية (١٣٢٨ م) انظر الرسم رقم (٧ و ٩) وهذا الكرسي مكفت بالفضة كما ترى

وكل هذه التحف محفوظة بدار الآثار العربية بمصر

(٨) والكفت هو ما تطعم به أواني النحاس من الذهب والفضة، وكان للنحاس المكفت رواج عظيم في مصر

قال المقريزي المتوفى سنة ٨٤٥ هـ (١٤٤١ م) في الفصل الذي عقده لاسواق القاهرة في خططه تحت ذكر «سوق الكفتيين» ما نصه: «... وللناس في النحاس المكفت رغبة عظيمة أدركنا من ذلك شيئاً لا يبلغ وصفه واصف لكثرته، فلا تكاد دار تخلو بالقاهرة ومصر من عدة قطع نحاس مكفت ولابد أن يكون في شوار العروس دكة نحاس مكفت، والدكة عبارة عن شيء يشبه السرير يعمل من خشب مطعم بالعاج والابنوس أو بخشب

مدهونون ، وفوق الدكة دست طاسات من شتى أحجام نكتت بالنقطة ، وعدة الدست سبع قطع بعضها أصغر من بعض تبلغ كبراها ما يسع نحو الاردب من القمح . وطول الاكفات التي تقدت بظاهرها نحو ثلث ذراع في عرض أصبعين ، وشكل ذلك دست أطباق عدتها سبعة بعضها في جوف بعض ، والباع أكبرها نحو ذراعين وأكثر وغير ذلك من المناثر والسرج والحقاق الاشنان والطشت والابريق والمبخرة ، فتبلغ قيمة الدكة من النحاس المكفت زيادة على مائتي دينار ذهباً — إلى أن قال — وقد قل استعمال الناس في زمننا للنحاس المكفت وعز وجوده ، فأن قوماً لهم عدة سنين قد تنادوا لشراء ما يباع منهُ وتنحية الكفت عنهُ طلباً للفائدة . اه . وهكذا تلاشى امر هذه الصناعة تدريجيًّا في القرن العاشر الهجري وما بعده حتى كاد يعدم من مصر . وقد استعيض عنهُ بأواني من النحاس خالية الزخرف والنقش وقد كان لاستعمال الصحون الصيني والصاج المطلي بالمينا اكبر سبب في اهمال الاواني النحاسية

ومن عوامل تلاشي هذه الصناعة ايضاً انعدام طائفة المكفتين من مصر بسبب ما يعزى الى السلطان سليم حين دخل مصر فاتحاً وقسائهِ على المماليك الجراكسة واخذه لابناء هذه الصناعة (التكفيت) ضمن ما اخذ من تحف وصناع مصر ونقلهم الى القسطنطينية

ومن هنا انتقلت هذه الصناعة الى الارمن حتى انها كادت تعد الآن ارمينية صرفة

ولقد ظلت مصر خالية من صناعة النحاس بتاتاً حتى زمن الفتح المحمدي العلوي واستتباب ملك مصر في يد المغفور له جد هذه الاسرة المالكة فانشأ فيها انشأ من مصانع مصنعاً لسبك النحاس بالقلعة تحت ادارة توماس جالوى الانكليزي. ويشتغل معهُ اربعة رؤساء ماهرين من الانكليز اثنان للاسطوانة وواحد للآلة البخارية، والرابع للسبك وتخليص النحاس من المواد الغريبة

أما العمال المصريون فعشرون موزعون على الاعمال المختلفة ، وفي كل عملية سبك يستعمل ٣٥ قنطاراً من النحاس ، وتخرج الاسطوانات كل يوم ٧٠ لوحاً الى ١٠٠ لوح ذات مقاسات مختلفة والنحاس المصنوع جزء منهُ من داخلية البلاد (القطر المصري) والباقي يجلب من تركيا وتريستا وليفورن بعضها على شكل الواح ومعظمهُ على شكل قوالب

ويلزم لكل عملية سبك ٢٥ قنطاراً من الفحم وقد يصل الى ٤٠ قنطاراً حسب اختلاف سمك الالواح المصنوعة . اه نقلاً عن المقتطف مجلد ٦٤ من مقال لحضرة صاحب السمو الامير عمر طوسون . فعمل في مدته الاسلحة الشهيرة بمصر وهي سبيل العقادين ، والنحاسين ، والسلحدار وغيرها ، وعملت بعد وفاته المقاصير النحاسية وتشاهد بعدته بالقلعة ، وفي مشاهد آل البيت الكرام . وقد تخرب هذا المصنع ولا تزال اطلاله باقية الى الآن بالقلعة تدل عليه والآن جميع النحاس المستعمل بمصر يجلب اليها من الخارج